لهذا السلوك؛ ولكنهم يدركون، أيضاً، أن فعاليات هذه الغزوة لم يكن لها جدوى، وما كان لها أن تبقي على أثر دون تأمين خطواتها ومباركتها من قبل بريطانيا وشركائها الاستعماريين، وذلك عقب سقوط فلسطين في قبضة الاستعمار الاوروبي[٤].

لقد نجم عن شعورهم بالظلم أن أبدى الفلسطينيون عميق أسفهم تجاه أوروبا بصفة عامة، بل وتجاه أنفسهم أحياناً نتيجة للخدعة التي ألحقها بهم الحلفاء الاوروبيون ابّان الحرب العالمية الاولى. ذلك أن نضالهم ضد ما أعتبروه الظلم والطغيان التركي (الاسلامي) أوصلهم الى ظلم أكثر فداحة، ومن عنصر غريب عنهم في كل شيء ! نلمس هذا الشعور في أكثر من مناسبة. ففي العشرينات جاء في بيان للجنة التنفيذية العربية في فلسطين، في ذكرى حلول اثنى عشر عاماً على احتلال القدس (١٩٢٩)، ما يعبّر عن الشعور بخيبة الامل من وعود بريطانيا، وان «الشعب الفلسطيني يذكر، بدموع الحزن، ضحاياه التي قدمها في سبيل قضية الحلفاء في الحرب العامة». وقد تابع بيان اللجنة: «وبدلاً من الحصول على الحرية والاستقلال، خرجت علينا ـ بريطانيا ـ بسياسة ظالمة أورثتنا القلاقل والاضطرابات، وعرضت كياننا، كأمة، للفناء والاضمحلال...»[٥]. وفي الثلاثينات، ذكر قادة اللجنة العربية العليا ـ وهي أعلى هيئة تمثيلية فلسطينية في ذلك الحين ـ ان الحكومة العثمانية كانت أرحم من الحكومة الحالية (حكومة الانتداب)؛ فقد منعت اليهود الغرباء من شراء الاراضي وتملكها، كما أن السلطان عبدالحميد لم يخرج أي فلاح من أرضه...»[٦]. كذلك يستذكر الفلسطينيون أن بلادهم، وعلى الرغم من معاناتها من الظلم العثماني، احتفظت بصبغتها العربية[٧]. وهنا يبدو الظلم الاوروبي مضاعفاً، مقارنة بسابقه التركي، لأن فلسطين فقدت استقلالها، وكادت تفقد عروبتها، بعد استعمارها من بريطانيا التي تعاونت والدول الحليفة مع الصهيونية.

يمكن تبرير «ملامح الظلم» في الصورة الاوروبية بما يعتمل في الضمير الفلسطيني بمسؤولية أوروبا عن خلق المسألة الفلسطينية[٨]. وهو شعور يكاد يتمتع باستمرارية متواصلة. فعندما تطرق بيان لـ «الجماعة الاوروبية» الى مساهمة دول أوروبا الغربية في رفع المعاناة الانسانية عن اللاجئين الفلسطينيين، من خلال دعم وكالة الغوث الدولية (أونروا)، رد المندوب الفلسطيني في الحوار العربي الاوروبي بأن «ما بذلته أوروبا من جهد اقترن بمسؤولية كبيرة تقع على كاهلها في تطور الاحداث التي أدت الى نكبة فلسطين»[٩]. ولعل في هذا المثال ما يكفي للادراك ان الشعور بالمسؤولية الاوروبية هو شعور مستقر بقدر ما هو مستمر في الذهن الفلسطيني. ومعنى ذلك ان صورة أوروبا الظالمة لا تحتاج الى كبير معاناة لكي تبرز بين الحين والآخر.

عدم الثقة

نكثت أوروبا الاستعمارية بأكثر من عهد للعرب والفلسطينيين. ولذلك يتحدث الفلسطينيون، في أدبياتهم حول القضية الفلسطينية، عن الغدر الاوروبي. وتتخلل، الى حد بالغ، ملامح الشك وعدم الثقة في السياسة الاوروبية في ثنايا تلك الادبيات.

لقد رأى الفلسطينيون أنهم ساعدوا دول الحلفاء الاوروبيين ضد الامبراطورية العثمانية ابّان الحرب العالمية الاولى. وطبقاً لوجهة النظر الفلسطينية الاكثر شيوعاً، فان القوات البريطانية، التي دخلت فلسطين في العام ١٩١٧، ما كان لها أن تحقق ذلك دون رضاهم [١٠]. وأكد هذا الرأي القائد الالماني فون ساندرس، الذي ذكر «أن البريطانيين كانوا يتقدمون نحو بيت المقدس وكأنهم أصدقاء، بينما واجه الاتراك موجة من العداء السافر»[١١].